

الفصل الرابع

أساليب التربية

أساليب التربية هي الطرائق والوسائل التي يتم بها تحقيق أهدافها وبلوغ غايتها ، وجعل الإنسان يتأثر بها ويستجيب لها . وذلك بمخاطبة عقله لتغيير قناعاته وآرائه ، وبتوجيه انفعالاته وشحن عواطفه ، وبتكوين عادات حسنة لديه ، ويجب أن تتنوع هذه الأساليب ؛ فتكون عقلية علمية تعتمد على طريقة العقل في المحاكمة والإدراك وتقبل المعلومات . فتقدم له الدليل ، وتجعله يستنتج النتيجة ، وتكون أيضاً عاطفية معنوية ، تثير كوامن النفس وتشبع رغباتها وأشواقها ، وتستفيد من نزعتي الخوف والرجاء فيها فتعتمد على الترغيب والترهيب . كما تكون بالاتباع والتقليد ، بوضعه أمام بعض الأبطال والعظماء ليراقب حركاتهم ويرى أخلاقهم فيعمل على مضاهاتهم والافتداء بهم .

ولا يجوز أن تقتصر التربية على الجانب النظري بشقيه العقلي والعاطفي . بل يجب أن تكون تربية عملية تسعى لجعل الإنسان يقوم بالأعمال الحسنة ويستفيد من العلوم التي اطلع عليها ، ويغير عاداته وطريقته في الحياة ليتبع الحق ويتجه نحو الفضيلة . والتربية العملية أسهل من التربية النظرية وأشد تأثيراً منها .

وهناك أساليب كثيرة لتحقيق هذه التربية الشاملة للعقل والنفس

والروح والجسم بجانبها النظري والعملي ، نجلها في : التربية بالوعظ والإرشاد والتربية بالقصة والحوار ، والتربية بالتشبيه وضرب الأمثال ، والتربية بالعمل والعادة والقدوة واللعب والترغيب والترهيب^(١) .

وإليك التفصيل في حدود ما يشير إليه القرآن الكريم .

١- التربية بالوعظ والإرشاد :

إن الوعظ هو الأسلوب المباشر الصريح في التربية ، ومن السهل الاعتماد على هذا الأسلوب ؛ فما على المربي إلا أن يتوجه بالمواعظ والنصائح إلى من يربيه ويطلب منه الامتثال لها . وخير مثال على ذلك من كتاب الله ما جاء في موعظة لقمان لابنه ، وهو ينهيه عن الشرك ، ويأمره بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويأمره بمكارم الأخلاق . قال الله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

﴿ يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [١٣] يَبْنَىٰ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [١٤] وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ [١٥] وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْضُضْ مِّنْ صَوْتِكَ إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٦-١٩] .

(١) انظر أصول التربية الإسلامية/ النحلاوي ، ص ٢٠٥ ، ومنهج التربية الإسلامية/ محمد قطب ، ص ٢١٩-٢٦٢ .

وبالتأمل في هذه المواعظ الغالية نجد أنها تتعلق بجوانب العقيدة والعبادة والأخلاق ، وأنها حملت الفرد مسؤولية نحو نفسه ومسؤولية نحو مجتمعه . وجعلت الإيمان والعبادة أساساً للتحلي بالأخلاق الحميدة والقيام بالواجب . وهي مواعظ واضحة لا غموض فيها ، ومقبولة لكل عاقل ، لا ياباها ويعرض عنها إلا من خبثت نفسه واتبع هواه .

ومن ذلك ما جاء في دعوة هود - عليه السلام - لقبيلة عاد ، إذ خاطبهم بقوله :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۖ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَحَنْتِ وَعُيُونٌ ۖ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الشعراء : ١٣١-١٣٥] .

وهكذا ذكرهم بفضل الله عليهم ، وخوفهم من العذاب ، وأمرهم بطاعته وبتقوى الله وخشيته . ولكنهم أصروا على الكفر والجحود ، فكان مصيرهم الهلاك :

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ۖ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ۖ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٦-١٣٩] .

لكن الإسراف في الاعتماد على هذا الأسلوب قد يجعله مملاً ممقوتاً ، ويؤدي إلى الإعراض والنفور ؛ ولذلك يجب الاعتدال فيه وملاحظة النتائج المترتبة عليه .

٢- التربية بالقصة :

تعتبر القصة من أكثر أساليب التربية فعالية وأقواها أثراً ، وهي وسيلة مشوقة للصغار والكبار ، تحدث أثرها في النفس مع الشعور بالمتعة ، وتجعل الإنسان ينجذب إليها وينتبه إلى أحداثها ، ولا يشرد بذهنه عن

يربيه . فإذا صدرت القصة عن الحكيم الخبير العليم ببواطن النفس وبما يصلحها وبكيفية إصلاحها آتت ثمارها يانعة ، وحقت الغاية منها . ولهذا كثر الاعتماد على القصة في القرآن الكريم ، وكانت قصصه طويلة حيناً وقصيرة أحياناً . وهي في كل مرة تقع في القمة من البلاغة والأسلوب البياني ، ومن الناحية الأدبية والفنية ، وبالنظر إلى مغزاها وآثارها التربوية :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣] .

ونختار من قصصه الكثيرة هاتين القصتين لما لهما من آثار تربوية :

أ) قصة قارون :

تبدأ القصة بالتعريف بالشخصية التي تدور حولها الأحداث ، وهو رجل من قوم موسى - عليه السلام - آتاه الله المال الكثير ، فبغى وتكبر ، وخرج يختال أمام الناس ويعيث في الأرض الفساد . ثم تروي القصة نصيحة طائفة من قومه ، حذروه من عاقبة الاختيال والفرح بالمال ، وأمروه بالنظر الى الجزاء في الآخرة ، والقصد في الإقبال على الدنيا ، ونهوه عن الطغيان والفساد ، ودعوه إلى البر والإحسان . ولكنه لم يلق لهم أذناً واعية ، بل مضى في غيه ، وجحد فضل الله عليه ، وزعم أنه جمع المال بحنكته وخبرته ، وأنه ليس لأحد أن يملي عليه طريقة التصرف فيه ، ولم يتعظ بمصير الذين هلكوا من قبله وكانوا أقوى منه وأكثر أموالاً :

﴿ إِنَّ قُلُوفَهُمْ كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَأَيَّدْنَاهُ مِنَ الْكُفْرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

[الفصل : ٧٦-٧٨] .

وكان هذه الآيات تجعل القارئين والسامعين لها يتخيلون قارون يتبخر أمامهم ، ويستمعون إلى النصيحة الموجهة إليه ، وإلى استهتاره بها ، فتعرض عليهم مشهداً آخر له وهو في أبهى حلله ؛ مما جعل الناس الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها يتمنون أن يؤثروا مثله ، وجعل العلماء الذين ينظرون إلى حقائق الأمور وعواقبها يحذرونهم من عاقبة أمره ، ويرغبونهم في ثواب الله الذي أعده للمؤمنين الصالحين والزاهدين الصابرين :

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الْغَائِبُونَ ﴾

[الفصل : ٧٩-٨٠] .

والمشهد الثالث من القصة يبين مصير ذلك المتكبر المغرور . إذ انخفضت به الأرض ، وابتلعت داره وأمواله ، ولم يبق له أثر . ولم يستطع أحد أن ينصره وينقذه :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [الفصل : ٨١] .

وهذا ما جعل أولئك الذين تمنوا أن يكونوا مثله في المشهد السابق

يشعرون بفضل الله عليهم ، ويتأكدون من صحة ما رغبهم فيه العلماء ،
ويدركون أن الرزق من عند الله ، يوسعه على بعض عباده ، ويضيقه على
بعضهم الآخر ابتلاء لهم ، ويعلمون أن الخسران عاقبة الكافرين
والمفسدين :

﴿ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَاثُرُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا وَيَكَاثُرُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾
[القصص : ٨٢] .

ولا شك في أنه كان لهذه القصة أثرها الكبير في نفوس المؤمنين ،
وغالبهم ضعفاء فقراء ؛ مما جعلهم لا يبالون بما عند الكافرين من القوة
والمال . ثم إنها صححت النظرة إلى المال والحياة ؛ فالمال وسيلة
للحياة الفاضلة وليس غاية في ذاته ، ولا يجوز أن يصبح أداة للفساد
والطغيان ؛ والحياة ما هي إلا دار للعمل والابتلاء ، ولا يجوز لأحد أن
ينخدع بمتاعها وزخارفها . والآخرة هي الدار التي يجد فيها كل امرئ
جزاء فعله ، وهي التي يجب أن نجعلها نصب أعيننا وغاية أفعالنا لتكون
من المفلحين :

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٨٣] مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا
السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [القصص : ٨٣-٨٤] .

ب (قصة أصحاب الكهف :

تبدأ القصة بالإشارة إلى أن أحداثها - على الرغم من غرابتها - ليست
بأعجب مما في هذا الكون الفسيح من الآيات الكثيرة الدالة على عظمة الله
وقدرته وحكمته : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا
عَجَبًا ﴾ [الكهف : ٩] .

وهذه الإشارة تدل على أنه كان لدى بعض الناس علم بطرف من هذه القصة العجيبة . وقد روي عن ابن عباس أن قريشاً بعثت رجالاً إلى أحبار يهود بالمدينة وقالت لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ؛ فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء . . فقال لهم اليهود : سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حدث عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هو؟ فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

فلما سأله قال : « أخبركم غداً عما سألتكم عنه » فانصرفوا عنه . ومكث خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه وحي حتى شق ذلك عليه وعلى أصحابه ، ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف ، وفيها خبر ما سألوها عنه من أمر الفتية والرجل الطواف^(١) .

وبعد هذا التمهيد عرضت علينا لمحات قصيرة تبين خلاصة القصة وخطوطها العريضة ؛ فنرى فتية يأوون إلى الكهف ويلتجئون إلى ربهم ، فينامون سنين عديدة ثم يبعثون :

﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۝ [الكهف : ١٠-١٢] .

وبعد هذا التلخيص المشوق للقصة يبدأ التفصيل بأن ما سيقصه الله منها هو الحق اليقين ، ويأتي التعريف بهؤلاء الفتية ، فهم مؤمنون

(١) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير - المكتبة التجارية الكبرى بمصر ، ج ٣ ص ٧١-٧٢ .

مهتدون ، ثبتهم الله وزادهم هدى ، فأعلنوا إيمانهم بالله خالق السموات والأرض وجابها قومهم الذين أشركوا دون دليل . ثم فارقوهم بعد أن لم يستجيبوا لهم ، ولجؤوا إلى الكهف طلباً للنجاة والرحمة والتوفيق من الله :

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الكهف : ١٣-١٦] .

وبعد ذلك يعرض علينا مشهد الكهف وهم نائمون فيه ، ونرى أجسامهم وقد حفظهم الله من أشعة الشمس التي كانت تميل عنهم إلى جهة اليمين حين طلوعها ، وإلى جهة الشمال حين غروبها ، كما حفظهم من رطوبة الأرض ، فجعلهم يتقلبون من جنب إلى جنب ، وحفظهم من الناس لثلا يدخل عليهم أحد ، فجعلهم يبدون كالمستيقظين ، ومن الوحوش الضارية بأن جعل كلبهم باسطاً ذراعيه بالباب بهيئة الحارس لهم :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرَ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آتِظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْلَمْتَ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾﴾ [الكهف : ١٧-١٨] .

ونكاد نمسك أنفاسنا ونحن ننظر إليهم ، وإذا بهم يستيقظون بعد ذلك

السبات العميق ، ويسأل بعضهم بعضاً عن مدة لبثهم ، فأجابوا بأنها يوم أو بعض يوم على ما هو معتاد في حياة البشر ، ولعلمهم أحسوا بآثار نوم طويل ، فرأوا أن يفوضوا علم ذلك إلى الله . وشعروا بالجوع ، فطلبوا من أحدهم أن يذهب إلى المدينة ويشتري لهم أطايب الطعام بما وجدوه معهم من النقود الفضية . ولم ينسوا أن يوصوه بالتلطف والاحذر لكيلا يعلم بهم قومهم ، فيأمروا برجمهم أو يرجعوه إلى دينهم :

﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِبَتْسَاءٍ لِّوَابِتْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدْتُمْ ﴾ [الكهف : ١٩-٢٠] .

والمشهد الأخير يصف لنا أمر العثور عليهم ، ويبين المغزى من القصة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِجَعَلُوا آتٍ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴾ [الكهف : ٢١] .

ويبدو - كما قال المفسرون - أن النقود التي دفعوها ثمناً للطعام لم تعد رائجة منذ أمد بعيد ، مما جعل الباعة يوشون بالذي دفعها ، ويظنون أنه عثر على كنز^(١) . ولعلمهم كانوا يروون قصتهم عن أسلافهم ، مما جعلهم يجزمون بأنه واحد من أولئك الفتية ، ويتبعون أثره حتى عثروا عليهم . ولكن هؤلاء الذين عثروا عليهم لم يكونوا مشركين ، إذ لم يبطشوا بهم ، وإنما أقاموا مسجداً في تلك البقعة تبركاً بهم .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ص ٧٧ .

وقد دلت القصة على أن الله - تعالى - استجاب لهؤلاء الفتية المؤمنين ، فنجاهم من القوم الكافرين ، ونشر عليهم من رحمته ، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً ورشداً . ودلت أيضاً على البعث والنشور ، فكما بعثهم الله بعد سنين عديدة فإنه يبعث الأموات يوم القيامة .

ثم عقت الآيات بذكر أقوال الناس في عددهم ، ونهت عن الخوض في التفاصيل التي لم يخبر بها مما لا طائل تحته :

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٢] .

وقد ضعف الله القولين الأولين في عددهم بقوله : (رجماً بالغيب) وسكت عن القول الثالث ، مما جعل بعض المفسرين يستنتجون صحته ويقولون : هم سبعة ، وإن كان الأجمل في ذلك تفويض الأمر إلى الله علام الغيوب^(١) والعبرة في وقائع القصة ، وليست في عددهم وأسمائهم وأعمارهم وغير ذلك من التفاصيل التي يهتم بها القصاص .

وينتقل السياق من النهي عن الجدل في غيب الماضي إلى النهي عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، وإرشاد النبي وكل مؤمن ألا يجزم بفعل شيء في المستقبل دون أن يعلق ذلك على مشيئة الله ، وإلى الحث على ذكره وطلب هدايته وتوفيقه :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَذَكِّرْكَ إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴾ [الكهف : ٢٣-٢٤] .

وما كان تأخير نزول الوحي في الإجابة عن سؤال المشركين إلا درساً

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٣ ص ٧٨ .

عملياً لتعليق كل ما يراد فعله على مشيئة الله عز وجل .

وتنتهي القصة بذكر مدة لبثهم وتفويض العلم إلى الله والثناء عليه والإرشاد إلى التوكل عليه :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ۚ لَمْ غَيَّبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٥-٢٦] .

وتحديد هذه المدة هام ، إذ لو كانت قصيرة كما ظنوا لأول وهلة لما كان لها شيء من الأهمية ؛ ولهذا ذكرت على سبيل الجزم ، ولم تذكر أقوال المختلفين فيها .

وقوله : (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً) يعني أن المدة هي ثلاثمائة سنة شمسية دون زيادة ، وإذا حسبناها بالسنوات القمرية فتزيد تسعاً وتصبح / ٣٠٩ / تسعاً وثلاثمائة سنة . وهذا ما دل عليه الحساب الدقيق للفرق بين التقويمين خلال تلك المدة . ولم يكن ذلك الفرق معلوماً حين نزول الآيات ، مما جعل العلماء يرون فيها نوعاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم .

وإن تلقي هذه الآيات يدل على علم الله الشامل لكل شيء ، وعلى قوة سمعه وبصره ، وعلى تفردة في الحكم وتنظيم الكون وشؤون الخلق ، وعلى ضرورة الاعتماد عليه والالتجاء إليه .

الثمرات التربوية :

لقصة أصحاب الكهف ثمرات تربوية هامة ، وهي درس قيم للمسلمين المستضعفين الذين كانت حالهم في مكة بين الكفار الذين يتربصون بهم شبيهة بحال أصحاب الكهف . وما أشبه حال المسلمين

بحال الذين لجؤوا إلى الكهف ، حين كانوا يأوون إلى دار الأرقم في بدء الدعوة ، وحين هاجروا إلى الحبشة ثم إلى المدينة ، بل إن إيواء النبي وصاحبه إلى الغار حين الهجرة ، وتوكله على الله حين كاد المشركون يعثرون عليهما هو شبيه بما جرى لهؤلاء الفتية :

﴿إِلَّا نَضْرِبُوهُ فَقَدْ نَضَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ فَا نَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُهُ بِجُثُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[التوبة : ٤٠] .

وقد أشادت القصة بأهمية الفتیان الشباب ، فهم أقدر على تفهم الدعوة إلى الحق ، وأشد حماساً لنشرها ، حتى إنهم ليضحون في سبيلها بأنفسهم وأعز ما لديهم . وكان غالب أصحاب النبي من الشباب . أما الشيوخ فيكونون قد ألفوا مانثؤوا عليه وغير راغبين في تفهم أي دعوة جديدة ، وليس عندهم من القوة ما يجعلهم يقبلون بها ويقاومون الرافضين لها ؛ ولهذا لم يؤمن منهم الا القليل ، وكان لهذه الإشادة أثرها في تعزيز الشباب المؤمن وتثبيتهم على طريق الدعوة .

وتبين القصة فضل الله على الناس ولطفه بالعباد الذين استجابوا له ، فهو يزيدهم هدى ويثبتهم وينزل عليهم الأمن والسكينة . وبينت خطأ المشركين فيما ذهبوا إليه من تعدد الآلهة ، حين جعلتنا نستمتع من أبطال القصة ما يدل على وحدانية الله : (ربكم رب السموات والأرض لن ندعوا من دونه إلهاً ، لقد قلنا إذا شططاً) .

وبينت أيضاً ضلال المشركين حين زعموا أن الأصنام آلهة دون دليل ، والعقيدة لا تقوم إلا على دليل قوي يستند إليه وبرهان له سلطان على النفوس والعقول .

وصححت تصور حقيقة الألوهية والعلاقة بين الله وعباده ، فليست هذه العلاقة قائمة على الصراع والتحدي كما تصور الوثنية الإغريقية ، وليس الله مشغولاً بالتفكير في نفسه ، ولا تجري الأحداث والوقائع دون تنظيم وتدخل إلهي كما تصور بعض الفلاسفة ، ولكن الله لطيف بعباده ، يرشدهم إلى الحق ويثبتهم عليه ، ويدفع عنهم الظلم والعدوان :

﴿وَالَّذِينَ أَهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد : ١٧] .

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج : ٣٨] .

ثم إن القصة جعلت المسلمين ينبذون الخرافات والأساطير ، ويأخذون بالمنهج العلمي ، ولا يقبلون بفكرة أو عقيدة دون برهان . وذلك واضح في التنديد بالمشركين لأنهم اتخذوا آلهة لا برهان عليها : (هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين) وفي تفويض ما لا علم به إلى الله : (ربكم أعلم بما لبثتم) (قل الله أعلم بما لبثوا . قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) . وفي التنديد بمن يتبعون الظنون والأوهام ، ويلقون أقوالهم (رجماً بالغيب) .

وتعليق ما يراد فعله على مشيئة الله لا يخرج عن هذا المنهج ، لأن الإنسان لا يضمن بقاء نفسه وقوته وبقاء الشيء الذي يريد أن يعمل فيه ، ولا يدري ما يكون في المستقبل حتى يقطع فيه برأيه . وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان لا يفكر في المستقبل ولا يدبر له ، ولكن معناه أن يحسب حساب الغيب وحساب المشيئة التي تدبره ، وأن يستعين بالله على ما يعزم عليه ، ولا يستبعد أن يكون له تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما أراد حمده ، وإن جرت مشيئته بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ، بل يبقى راضياً مطمئناً^(١) .

(١) في ظلال القرآن/ سيد قطب - دار الشروق : بيروت - ١٣٩٤ ، ص ٢٢٦٠-٢٢٦٦ .

ولا ريب في أن اتباع المنهج العلمي وتكوين العقلية العلمية هو السبيل القويم للنهضة وبناء الحضارة . وبهذا أقام المسلمون صرح حضارة فاقت كل ماعداها .

وأهم ما في القصة من العبر والآثار التربوية أنها تدل على أن وعد الله حق في نجاة المؤمنين ، فهؤلاء الفتية التجؤوا إلى الكهف طلباً للأمن والنجاة ، ودعوا الله بأن يحفظهم ويرعاهم :

﴿ فَأَوَّااَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾ .
﴿ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ . فاستجاب الله دعاءهم وحفظهم من أعدائهم ، كما حفظ أجسادهم من أشعة الشمس ورطوبة الأرض ، ومن السباع الضارية والناس العابثين . ولم يعثر عليهم إلا المؤمنون الذين أدرکوا فضلهم وصلاحتهم وأقاموا عليهم مسجداً لتكريمهم وتخليد ذكراهم .

وهذا ما جعل المؤمنين يمضون في طريقهم وهم واثقون بالنجاة والنصر ، غير آبهين بالمشرکين الذين أرادوا أن يصدوهم عن سبيل الله .

كما دلت على قدرة الله على بعث الموتى يوم القيامة ، فهو الذي حفظ أجساد أصحاب الكهف من البلى أثناء لبثهم الطويل ، وهو يحفظ ذرات الأجساد بعد أن تفارق الحياة ، ويعلم مصير كل منها :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كَنْزٌ حَفِیْظٌ ﴾ [ق : ٤٤] .

وما الموت إلا حالة شبيهة بالنوم ، وكما يستيقظ النائمون يبعث الأموات حين النفخ في الصور :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢] .

ولقد كان المشركون ينكرون البعث والنشور ، فدلّت القصة على إمكان ذلك الأمر ، وقربت تصور حدوثه من أذهانهم ، مما جعلها تخدم أغراض الدعوة وتؤدي إلى ترسيخ العقيدة .

وإن الحكماء والمربين ليستنبطون العبر مما في القرآن من قصص الأنبياء وغيرهم ، ويجعلونها وسيلة من وسائل التربية القويمة :

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِن تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[يوسف : ١١٠] .

٣- أسلوب الحوار :

يعتمد هذا الأسلوب في التربية على مقابلة الرأي بالرأي ومقارعة الحجة بالحجة بقصد تغيير رأي المعارض وجعله يقتنع بما نراه من الحقائق . ومع أنه قلما تخلو قصة في القرآن الكريم من عرض الحوار بين أشخاصها حتى يخيّل إلى القارئ أنه ينظر إلى أحداث القصة تقع أمام عينيه ويستمتع إلى أشخاصها وهم يتحاورون ويتجادلون ، مما يعطيها صفة الحيوية ويجعلها أكثر متعة وأشد تأثيراً على النفس . مع ذلك فإن الجدل والحوار يعتبر أسلوباً متميزاً من أساليب التربية ، ونراه بارزاً في كثير من آي الذكر الحكيم .

ولقد بين الله - سبحانه - أصول الجدل والحوار ، وندد بمن يجادل دون الاعتماد على الحقائق والأدلة الصحيحة :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج : ٨] .

وبين أن من يدفع الحق ويرفض الحقيقة هو متكبر مضل ، ومصيره الذل والعذاب :

﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خَرَىٰ وَنَذِيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج : ٩] .

ونهى أن يؤدي الجدل إلى الشحناء والبغضاء ، وأمر أن يكون بالحسنى وبقصد الهداية وقبول الحق :

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل : ١٢٥] .

والجدال والتي هي أحسن يكون بالدعوة إلى ما التزمنا به دون تفريق بيننا وبين من نخاطبه :

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت : ٤٦] .

ومن المجادلة والتي هي أحسن ماجاء في دعوة نوح - عليه السلام - لقومه إلى عبادة الله وحده ، وردده على اعتراضاتهم ، قال الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِتِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٩﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَوْمِ ﴿٢٠﴾﴾

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكَ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكَ كَاذِبِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْتَهٍ مِنْ رَبِّي وَءَالِئِنِّي رَحْمَةٌ مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِيتْ عَلَيْكُمْ أَنْزِلْكُمْ كُفْرَهُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ﴿٢٢﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلِكَيْفَ أَرْكَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَفْتُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قَالُوا يَنْتُحِ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَإِنَّا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾

قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٢٣﴾ [هود : ٢٥-٢٣] .

ومنها ماجرى بين إبراهيم - عليه السلام - وبين ملك متجبر كفر بالله وجعل لنفسه الحق في الحكم على الناس بالموت أو الحياة ، فطلب منه إبراهيم أن يغير شيئاً في سنن الكون ، فيجعل الشمس تطلع من الغرب ، فأصبح مبهوراً مذهولاً لا يجد ما يرد به عليه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْجِبُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ﴾

قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

وكذلك دعا إبراهيم قومه إلى عبادة الله وحده ، ونهاهم من عبادة أصنام لا يوجد دليل على عبادتها ، ولا شيء يجعل الإنسان يخاف منها ؛ فالله القادر هو الذي يجب أن يخافه الناس إذا اشركوا به ، وأن يطمئنوا إذا عبدوه :

﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾

قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْتُ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَنتُمْ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٧﴾

وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ [الأنعام : ٨٠-٨٣] .

ومن ذلك الحوار بين موسى عليه السلام وفرعون الطاغية :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ ﴾ (٢٢)

قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٣﴾

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَعِينُونَ ؟ ﴿٢٤﴾

قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾

قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ أَلَّذِي أَرْسَلَ إِلَيْكُمْ لِمَجْنُونٍ ﴿٢٦﴾

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾

قَالَ لَنْ أَخَذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنَ الْمُسْجُونِينَ ﴿الشعراء : ٢٣-٢٩﴾ .

وتهديد العتاة بالسجن والتعذيب في مثل هذا الموقف ماهو إلا عجز عن الرد المنطقي وهزيمة أمام الحق الذي يجب أن يتبع .

وأحياناً تروى القصة بكاملها بأسلوب الحوار كقصة صاحب الجنتين الكافر مع الفقير المؤمن الذي حذره من الكبر والكفر والغرور بالمال والعشيرة ، وخوفه من سوء العاقبة ، فاستمر في ضلاله وعناده حتى وقعت الكارثة ، ولم تغن عنه عشيرته شيئاً :

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾ (٢٨) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٢٩﴾

وكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٠﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣١﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٢﴾

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا ﴿٣٣﴾ أَلَيْكَآ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٤﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٥﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لِمُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يُصْرُونَكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ [الكهف : ٣٢-٤٤] .

أما إذا أدى الجدل إلى العناد والشقاق فهو حينئذ مذموم :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من ترك الكذب وهو باطل بني له قصر في ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بني له في وسطها ، ومن حسن خلقه بني له في أعلاها » (١) .

والجدال الذي يؤدي إلى الزيف والضلال ونشر البدع منهي عنه قال رسول الله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ، ثم قرأ : ماضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون » (٢) .

وقال أبو عمر ابن عبد البر (٣) : « تناظر القوم وتجادلوا في الفقه ، ونهوا عن الجدل في الاعتقاد لأنه يؤدي إلى الانسلاخ من الدين » (٤) .

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حديث حسن .

(٢) رواه ابن ماجه وابن عبد البر عن أبي أمامة ، والآية في سورة الزخرف : ٥٨ .

(٣) ابن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣ هـ) : أبو عمر ، يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري . ولد بقرطبة ونشأ بها وتفقه ، وسمع من أكابر المحدثين بقرطبة وغيرها . أقام مدة في المغرب ، ثم تحول إلى شرق الأندلس ، وتولى قضاء لشبونة ، وتوفي في شاطبة . وهو إمام مجتهد وفقه حافظ ، له مؤلفات كثيرة في الفقه والسنة والسيرة والقراءات والأدب ، منها جامع بيان العلم وفضله ، والاستيعاب في أسماء الأصحاب [المحمصاني ، أحمد بن عمر/ مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٩٤] .

(٤) مختصر جامع بيان العلم وفضله ، ص ١٥٧ .

٤- أسلوب التشبيه وضرب الأمثال :

يؤدي تشبيه المعاني الذهنية المجردة بالأشياء الحسية الملموسة إلى وضوحها ، ويؤدي ضرب الأمثال إلى تقريب الأفكار من العقل وجعلها مفهومة ، كما يؤدي التشبيه والتمثيل إلى إدراك المعنى وتكوين صورة له في المخيلة ، ويجعل التأثير بتلك الصورة أشد من الأفكار المجردة ، بالإضافة إلى ما في التصوير والتشخيص الحي من الإثارة والمتعة ، مما يطرد السأم عن المتعلم ، ويجعله متقد الذهن حاضر البديهة . ولذلك كثر الاعتماد على هذا الأسلوب في القرآن الكريم ، حتى ضربت فيه الأمثال بكثير من الأشياء الصغيرة وبعض الحشرات الحقيرة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

ومن ذلك أن الله - سبحانه وتعالى - شبه ضلال المشركين وضعف أوليائهم الذين يلجؤون إليهم من دون الله بالأنسجة التي تنسجها العنكبوت لقنص فريستها فقال :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤١] .

فالمشركون الذين يلتجئون إلى غير الله كالذبابة التي علقت ببيت العنكبوت ، وحبائل الشيطان التي أضلت هؤلاء المشركين ووسائل

أوليائهم التي أدت إلى غوايتهم شبيهة بتلك الشبكة التي علق بها الذبابة . وأولياء المشركين كالعنكبوت الذي يمتص دم فريسته ، وأولئك الأولياء ووسائلهم في ضعف العنكبوت وبيته . وفي هذا المثل ما يكفي للتفكير من عبادة غير الله عز وجل .

ومنه تشبيه الأصنام والآلهة التي يعبدها المشركون بالذباب لضعفه وحقارته : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] .

فأول صفات الله التي تجعله مستحقاً للعبادة القدرة على الخلق ، وكل ما عبد من دون الله عاجز عن خلق حشرة حقيرة كالذباب ، بل إن الأصنام التي يعبدها المشركون عاجزة عن استرداد ماقدم لها من الطعام إذا سلبه الذباب . وسواء أكان الطالب هو الصنم والمطلوب هو الذباب أم كان الطالب هو المشرك والمطلوب هو الصنم ؛ لأن الجميع ضعاف ، والله هو القوي الخالق لكل شيء والمستحق للعبادة .

وأخبر الله عن إحباط أعمال الكافرين بقوله :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلَٰلُ الْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم : ١٨] .

فكما أن الريح الشديدة والعاصفة القوية تبعثر الرماد ولا تبقى منه شيئاً ، فإن أعمال الكافرين تبدد فتصبح هباءً منثوراً ، ولا ينفعهم شيء مما عملوه وكسبوه ، لأنهم لم يجعلوه خالصاً لوجه الله .

وأخبر أيضاً عن هذا المعنى بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ فَوَقَّعَهُمْ فِي حِسَابِهِ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٥﴾ أَوْ كَظُلُمٍ فِي

بَحْرٍ لَّيْجٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُمْتُ بِعَظْمِهَا فَوْقَ بَعْضِ إِذَا
أَخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْنَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿النور : ٤٠-٣٩﴾ .

وإن الذهن حين يدرك هاتين الآيتين ليتخيل صورة مسافر في الصحراء
تحت أشعة الشمس المحرقة ، وقد انقطع عن الماء وأشرف على الهلاك
من الظما ، وإذا به يتراءى له عن بعد ما يظنه ماء ، فيحاول الوصول إليه
بما بقي لديه من طاقة ؛ ومهما اشتد في سيره يراه بعيداً أمامه ، حتى إذا
تضيفت الشمس للغروب ، أو شاهد علامة في تلك الأرض المستوية ،
فوصل إليها ، علم أنه كان يجري وراء سراب خادع ، وانقطعت أنفاسه .
ويتخيل صورة راكب سفينة في خضم بحر عميق متلاطم الأمواج ، وقد
تراكم عليه الضباب وغشيتة الظلمات ، فلم يعد يرى مسافة ذراع عنه ،
فأيقن بالهلاك وفي هذا ما يجعل كل عاقل يؤمن بالله ويخلص في عمله
لوجهه الكريم .

وشبه الله المنافقين في ضلالهم وحيرتهم بعد أن عرفوا الإسلام بمن
أوقد ناراً فلما سطع ضوءها وأبصر ما حوله انطفأت فأصبح في ظلام
دامس . وهم في خوفهم مما يحيط بهم شبيهون بمن أصابهم إعصار فيه
نار ، وانقضت عليهم الصواعق وسط ظلام شديد ، فصاروا يجعلون
أصابعهم في آذانهم ، ويحاولون أن يمشوا على ضوء البرق الذي يخطف
الآبصار ، وأصبحوا كمن فقد سمعه وبصره :

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ
وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ ضُمُّ بَكْمٌ عُنَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ
السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْأَعَهُمْ فِيءَ إِذْ أَنْبَأَهُم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ
مُخِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَنْطَفِئُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ
قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

﴿البقرة : ١٧-٢٠﴾ .

وشبه مضاعفة ثواب الذين ينفقون أموالهم في سبيله بالحبّة التي أنبتت سنابل كثيرة في كل منها حبات عديدة :

﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

كما شبه ذلك بالجنة الطيبة الهواء التي تؤتي ثمارها مضاعفة حين ينزل عليها الماء :

﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَثَمَرَاتُهَا أُكِلَتْ حَتَّى ضَعُفَتْ فَإِنْ لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

٥- التربية بالعمل والعادة :

يعد القيام بالعمل النافع أثراً من آثار التربية وهدفاً من أهدافها ولا قيمة لفكرة نظرية مالم تؤد إلى نتيجة عملية . ولذلك كان من دعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن دعاء لا يسمع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع » . (رواه ابن ماجه من حديث أبي هريرة) .

وكان يقول إذا أصبح : « اللهم إني أسألك علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً متقبلاً » . (رواه ابن عبد البر من حديث أم سلمة) .

ويدل على أهمية العمل وعدم جدوى الأفكار النظرية ما لم تكن مصحوبة به اقتران العمل الصالح بالإيمان في كثير من آيات الذكر الحكيم :

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

[المائدة : ٩] .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود : ٢٣] .

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد : ٢٩] .

ولا يحصل طالب العلم على الثواب حتى يعمل بعلمه :

عن عبد الرحمن بن غنم قال : حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كنا نندارس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال :

« تعلموا ما شئتم أن تعلموا ، فلن يأجركم الله حتى تعملوا »^(١) .

ولا يرسخ العلم إلا بالعمل ، ولا يسمى عالماً من لم يعمل بعلمه :

عن علي^(٢) - رضي الله عنه - قال : « يا حملة العلم اعملوا به ، فإن العالم من علم ثم عمل ، ووافق علمه عمله ، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ، يقعدون حلقاً فيباهي بعضهم بعضاً ، حتى إن الرجل ليغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل »^(٣) .

(١) رواه ابن عبد البر .

(٢) علي بن أبي طالب (٢٣ ق . هـ - ٤٠ هـ ، ٦٠٠ - ٦٦٢ م) : أبو الحسن ، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ربي في حجره ، وزوجه بنته فاطمة . وهو أول الناس إسلاماً شهد المشاهد كلها عدا تبوك ، اشتهر بالفروسية والشجاعة والعلم الغزير ، بويح بالخلافة بعد مقتل عثمان ، ومدة خلافته خمس سنوات [ابن حجر/ الإصابة ج ٢ ص ٥٠١-٥٠٣] .

(٣) رواه ابن عبد البر : مختصر جامع بيان العلم وفضله ص ٩٧ .

ولا يتأثر الناس بقول العالم حتى يعمل بعلمه :

قال مالك بن دينار^(١) : « العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلب كما يزل الماء عن الصفا »^(٢) .

والعمل بالعلم يمكن من تعلم المزيد : « من عمل بما علم أورثه الله تعالى علم ما لم يعلم »^(٣) .

ويبقى التعليم النظري باهتاً ضعيف الأثر حتى يقترن بالتعليم العملي ؛ فلتعلم قيادة السيارة مثلاً لا يكفي أن تتعلم كيف تدير المحرك وتجعلها تسير ، بل لابد من محاولة ذلك وتكراره عملياً حتى تكتسب المهارة المطلوبة .

ولقد اعتمد هذا الدين على التربية بالعمل من أول الدعوة ، فكان الواحد من الصحابة حين يعتنق الإسلام يدفعه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى من يعلمه القرآن الكريم ، فيتعلم عشر آيات ويقول لمن يعلمه : دعني حتى أذهب وأعمل بهذه الآيات ثم أعود فأتعلم غيرها :

عن ابن مسعود^(٤) قال : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم

(١) مالك بن دينار (١٠٠-١٣١هـ) : أبو يحيى ، مالك بن دينار البصري . كان عالماً زاهداً كثير الورع لا يأكل إلا من كسبه [ابن خلكان/ وفيات الأعيان ج ٣ ص ٢٨٧-٢٨٨] .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه ؛ اختيار محمود يوسف زايد ، ق ١ ، ص ٨٨ .

(٣) رواه أبو نعيم من حديث أنس : كشف الخفاء .

(٤) عبد الله بن مسعود (١٠-٥٠ هـ) : - أبو عبد الرحمن ، عبد الله بن مسعود الهذلي ، حليف بني زهرة ، أسلم قديماً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدرأ والمشاهد بعدها . لازم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وحدث عنه كثيراً . وشهد فتوح الشام ، وسيره عمر بن الخطاب إلى الكوفة ليعلم أهلها ، عاش بضعا وستين سنة ، ومات بالمدينة . قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « إنك لغلام معلم » ، وقال : =

يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

وقال أبو عبد الرحمن السلمي : « حدثنا الذين كانوا يُقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ؛ فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً »^(١) .

وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يعلم أصحابه أحكام الدين بطريقة عملية كلما كانت هذه الطريقة هي الأجدى في تعليمها :

فلتعليمهم الوضوء لم يجلسهم أمامه ويكلمهم عن أركانه وسننه وشروطه ومكروهاته ، وإنما توضأ أمامهم وأمرهم بأن يتوضؤوا مثله ، وانطلقوا يعلمون غيرهم بهذه الطريقة :

عن حُمران مولى عثمان بن عفان أنه رأى عثمان دعا بوضوء^(٢) فأفرغ على يديه من إنائه فغسلهما ثلاث مرات ، ثم أدخل يمينه في الوضوء ، ثم تمضمض واستنشق واستنثر ، ثم غسل وجهه ثلاثاً ويديه إلى المرفقين ثلاثاً ، ثم مسح برأسه ، ثم غسل كل رجل ثلاثاً ، ثم قال : رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتوضأ نحو وضوئي هذا وقال : « من توضأ نحو وضوئي هذا ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر الله له ما تقدم من ذنبه »^(٣) .

ولم تختلف طريقة تعليم الغسل عن ذلك :

= « من سره أن يقرأ القرآن غصاً كما نزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » [ابن حجر/ الإصابة ج ٢ ص ٣٦٠-٣٦٢ ، ابن عبد البر/ الاستيعاب ٢/ ٣٠٨-٣١٦] .

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣ .

(٢) أي بماء يتوضأ به .

(٣) رواه البخاري ، ١٦٤ .

قال أبو سلمة : « دخلت أنا وأخو عائشة على عائشة^(١) فسألها أخوها عن غسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فدعت بإناء نحو من صاع ، فاغتسلت وأفاضت على رأسها ، وبيننا وبينها حجاب »^(٢) .

وعائشة - رضي الله عنها - هي خالة أبي سلمة من الرضاع ، أرضعته أختها أم كلثوم . وقد اغتسلت أمامهما بعد أن سترت أسافل بدنهما مما لا يحل للمحرم النظر إليه . وظاهر الحديث أنهما رأيا عملها في رأسها وأعالى جسدها مما يحل نظره للمحرم .

والحديث يدل بشكل واضح على أن التربية العملية هي الطريقة المفضلة في التربية كلما كانت ميسورة . وقد قال الإمام ابن حجر العسقلاني في شرح هذا الحديث : « وفي فعل عائشة دلالة على استحباب التعليم بالفعل لأنه أوقع في النفس . ولما كان السؤال محتملاً للكيفية والكمية بينت لهما ما يدل على الأمرين معاً : أما الكيفية فبالاقتصار على إفاضة الماء ، وأما الكمية فبالاكتفاء بالصاع »^(٣) .

وكذلك علم الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه الصلاة بأن صلى أمامهم وقال لهم : « صلوا كما رأيتموني أصلي »^(٤) .

وكان الصحابة يعلمون التابعين الصلاة بهذه الطريقة :

(١) عائشة أم المؤمنين (٩ ق . هـ - ٥٨ هـ) : عائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما . ولدت بعد البعثة بأربع سنين ، وتزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي بنت ست أو سبع ودخل بها في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع ، وتوفي عنها وعمرها ثمانين سنة ، كانت فقيهة عالمة بالطب والشعر ، روي عنها أحاديث كثيرة ، ودفنت بالبقيع [ابن حجر/ الإصابة ج ٤ ص ٣٤٨-٣٥٠] .

(٢) رواه البخاري ، ٢٥١ .

(٣) فتح الباري/ ابن حجر العسقلاني - دار المعرفة : بيروت ، ج ١ ص ٣٦٥ .

(٤) رواه البخاري وأحمد والدارمي عن مالك بن الحويرث .

حدث أيوب عن أبي قلابة قال : جاءنا مالك بن الحويرث في مسجدنا هذا فقال : إني لأصلي بكم وما أريد الصلاة ، أصلي كيف رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي . فقلت لأبي قلابة : كيف كان يصلي ؟ قال مثل شيخنا هذا^(١) .

والشيخ هو عمرو بن سلمة .

وحج الرسول ﷺ مع أصحابه ، وهم يقومون بما يقوم به من الأعمال ، وقال لهم بعد أن علمهم الحج بالطريقة العملية : « خذوا عني مناسككم فإنني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه »^(٢) .

وقد احترم الإسلام العمل وكرم العمال في الحين الذي كان فيه العرب يحتقرون الأعمال اليدوية ويحطون من شأن أصحاب الحرف . وكذلك كان اليونان يحتقرون الأعمال اليدوية ، واعتبرها أرسطو جديرة بصغار العقول أو الذين لا عقول لهم ، وتناسب مع العبيد فقط ، واعتقد أن العمل اليدوي يؤدي إلى بلادة العقل وإتلافه ، ولا يترك وقتاً و نشاطاً للذكاء السياسي^(٣) .

وبذلك كان للإسلام فضل سبق على لوثر الذي نادى بأن تكون التربية العملية والعمل في إحدى المهن إلى جانب التربية النظرية ، ورأى أن يرسل الفتيان إلى المدرسة ساعة أو ساعتين في اليوم ، وأن يتعلموا مهنة فيما تبقى من الوقت^(٤) .

وعلى فرنسيس بيكون الذي قرر أن الدراسة ليست غاية في حد

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه ابن عبد البر من حديث جابر .

(٣) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ص ٩٥ .

(٤) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم . ص ٢٥٥ .

ذاتها ، وأن المعرفة إن لم تكن مقرونة بالعمل ليست سوى زهو وغرور علمي صاحب^(١) .

وعلى كومنيوس الذي أطلق عليه بعضهم لقب المبشر الأول بالتربية الحديثة ، وامتازت طريقته بالعناية بالتمرينات العملية ، ورأى أن لا يكرر الدرس ويعاد على نحو آلي حتى يحفظ عن ظهر قلب ، بل أن يعتاد الطالب العمل المثمر والجهد الشخصي ، وقال : « إن أصحاب الحرف يعرفون هذه الحقيقة حق المعرفة ، فليس بينهم من يقدم للمبتدئ دروساً نظرية عن مهنته ، بل تراهم يدعونه يتأمل ما يفعله المعلم ، ثم يضعون الآلات بين يديه ، ويعلمونه استخدامها . وبطرق الحديد يصبح المرء حداداً »^(٢) .

وعلى لوك المربي الإنكليزي الذي أراد أن يعلم تلميذه مهنة من المهن كالنجارة أو الزراعة ليهيئ عن طريق هذا العمل الجسدي سلوى للفكر وفرصة للراحة والاسترخاء ، ويقدم للجسد تمريناً مفيداً . ووجه عام ١٦٩٧ تقريراً إلى الحكومة الإنكليزية دعا فيه إلى تنظيم « بيوتات العمل » للأطفال والفقراء الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة والرابعة عشرة حيث يعملون ويقدم لهم الغذاء^(٣) .

وعلى روسو^(٤) الذي قال : « إنني لا أمل تكرار تلك الحقيقة ، وهي

(١) قصة الفلسفة ، ص ١٤٢ .

(٢) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٢٥٩ ، ٢٦٨-٢٦٩ .

(٣) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٣١٤-٣١٥ .

(٤) جان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨) : ولد في جنيف ، وعندما تعلم القراءة عكف على قراءة روايات غرامية خلفت في شعوره إحساساً عاطفياً شديداً . وفي الثانية عشرة امتحن مهنة تعلم منها الغش والخيانة وسوء الخلق ، ثم أصبح جوالاً ، وحببت إليه الطبيعة ، وبعدئذ عمل خادماً ومربياً . وفي سنة ١٧٤٩ دخل في مسابقة أدبية =

أن جميع دروس الأطفال يجب أن تكون بطريق العمل لا بطريق الألفاظ .
لا تعلمهم شيئاً من الكتب يمكن أن يتعلموه بطريق الخبرة^(١) .

وعلى فروبل^(٢) الذي قال : « إن الوقت قد حان لأن نرفع أي عمل
إلى منزلة النشاط الحر أي نجعله عملاً يدل على الذكاء ، وبذلك يصبح
للعمل الإنشائي في المدرسة غرض أعظم وأعمق من مجرد التدريب
الحسي أو نمو المهارة أو التمرين الجسمي أو التلقين بطريقة آلية أو

= موضوعها : هل عمل تقدم العلوم على تطهير الأخلاق أو على فسادها؟ وكان جوابه
بالنفي ، ورأى أن الحياة الصحيحة هي التي تجري وفقاً لقوانين الطبيعة . ثم رأى أن
سعادة الإنسان ورفاهيته حق طبيعي لكل فرد وليست امتيازاً لطبقة دون غيرها ، وكتب
مقالاً عن أسباب التفاوت بين الناس ، ورسالة العقد الاجتماعي ، وتحتوي أهم
المبادئ التي نادى بها الثورة الفرنسية . ونشر كتاب « إميل » وطرح فيه مشكلات
التربية وضمه كثيراً من المبادئ التربوية . وله كتاب « الاعترافات » ذكر فيه تاريخ
حياته [عبد الدايم/ تاريخ التربية ٣١٧-٣٤٠ ، منرو/ المرجع ج ٢ ص ٢٢٩-٢٦٢] .

(١) المرجع في تاريخ التربية/ بول منروج ٢ ص ٢٤٩ .

(٢) فروبل (١٧٨٢-١٨٥٢) : ولد فريدريك ولهلم أوجست فروبل في قرية
« أوبرايسباخ » بمقاطعة « توربخيا » من قس بروتستانت ، ولم يستطع أبوه أن يرسله
إلى الجامعة لعجزه عن توفير النفقات اللازمة ، فأوكل أمره إلى صاحب غابات ليعلمه
مهنه ، فعاش في الطبيعة ولاحظ ما فيها من حيوانات ونباتات . وقرأ كتباً في الهندسة
 والرياضيات ، ثم انتسب إلى جامعة « يينا » وتابع فيها دراسة الرياضيات ، ولم يلبث
أن سجن بسبب عجزه عن سداد الديون المتركمة عليه ، ثم رحل إلى فرانكفورت
ليعمل في بناء البيوت ، وتعرف على مدير المدرسة فعينه معلماً للتلاميذ . وذهب
لزيرة بستانالوزي في « ايفردون » وأعجب بطريقته في تدريب الحواس ، وتوجه إلى
الاهتمام بنمو الطفل . وافتتح مدرسة في قرية « جريسهام » ثم نقلها إلى « كايهاو »
وقام بتعليم تلاميذه بالتماس المباشر مع الطبيعة وبتنمية طبيعتهم الإنسانية والفردية
بالعمل التعاوني واللعب . وحينئذ كتب مؤلفه الشهير « تربية الإنسان » وبعده طبع
كتابه « أغاني الأمهات » [عبد الدايم/ تاريخ التربية ٣٧٥-٣٩٢ ، منرو/ المرجع ج ٢
ص ٣٣٣-٣٦٣] .

اكتساب المهنة أو الحرفة ، بل يصبح أبرز صورة للتعبير عن الأفكار ؛ وأصلح طريقة لتكوين العادات أو تشكيل الأخلاق»^(١) .

ويعد جون ديوي^(٢) أبرز الدعاة في العصر الحاضر إلى تدريس العلوم عن طريق الممارسة الحقيقية النافعة للحرف والمهن لا طريق تعليم الكتب^(٣) .

التربية بالعادة :

وحين يكرر الإنسان الأعمال التي تعلمها مرات عديدة تصبح عادة متأصلة في نفسه . والإنسان يخضع لعادات كثيرة في حياته ، يقوم بها تلقائياً دون أن يعيرها كبير انتباه ، ولذلك يحرص المربون على تكوين العادات الحسنة وترك العادات السيئة . ولقد نظم الإسلام حياة الناس تنظيمًا شاملاً سواء في شعائهم التعبدية أم في شؤونهم اليومية ، فجعلهم يعتادون البدء بالجانب الأيمن من أعضائهم في كل أمر حسن ،

(١) المرجع في تاريخ التربية/ بول منروج ٢ ص ٣٥٩-٣٦٠ .

(٢) جون ديوي (١٨٥٩-١٩٥٢) : ولد في برلتون شرقي الولايات المتحدة ، ثم سافر إلى غربها ودرّس الفلسفة في جامعة شيكاغو وغيرها . وعاد إلى الشرق وأصبح رئيس قسم الفلسفة في جامعة كولومبيا . له عدة مؤلفات في الفلسفة والتربية والأخلاق والمنطق وعلم النفس . تجلت عبقريته بربط التربية بالحياة والمجتمع ربطاً واعياً متيناً ، وقال بأن العلم لا يحصل بقراءة الكتب ، بل بممارسة عملية للمشاكل النافعة ، ويترتب على المدرسة أن تدرب على حياة العمل والتعاون ، وتعلم بالممارسة الفنون والمباحث الضرورية للملاءمة مع النظام الاقتصادي والاجتماعي . وهدف التربية هو إضاءة السبيل أمام الذهن مدى الحياة ، ويتخذ مفهوم النمو محور فكره الفلسفي ، ويعد الفرد غاية بذاته ، وصالحه المقياس للخير والشر [العوا/ التجربة الفلسفية : الحدوس الفلسفية ص ٤٦٣-٤٦٨] .

(٣) قصة الفلسفة/ ول ديورانت ، ص ٦٢٦ .

ففي الوضوء يسن غسل اليد اليمنى قبل اليسرى ، وكذلك الرجل اليمنى قبل اليسرى ، وفي الغسل يسن صب الماء على الجانب الأيمن من الجسم قبل الأيسر . وحين تمشيط شعر الرأس أو حلقه يستحب البدء بشقه الأيمن . وحين لبس الثوب يستحب إدخال اليد اليمنى في الكم قبل اليسرى ، وعلى العكس حين النزع يستحب البدء باليسرى . وحين دخول المسجد تقدم الرجل اليمنى ، بينما تقدم اليسرى حين الخروج منه أو دخول الخلاء . والمسلم يستعمل يده اليمنى لتناول الطعام والشراب والمضمضة والاستنشاق والمصافحة والأخذ والعطاء والكتابة ، ويستعمل يده اليسرى لإزالة الأقدار كالاستنثار والاستنجاء .

قال الإمام النووي^(١) : قاعدة الشرع المستمرة استحباب البداءة باليمنى في كل ما كان من باب التكريم والتزين ، وما كان بضدهما استحباب فيه التياسر^(٢) .

والأصل في هذه الأحكام ما روي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : « كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله »^(٣) .

وعنها قالت : « كانت يد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اليمنى

(١) النووي (٦٣١-٦٧٦هـ ، ١٢٣٣-١٢٧٧م) : أبو زكريا ، يحيى بن شرف . مولده ووفاته في نوا ، تعلم في دمشق ، وأقام فيها زمناً طويلاً ، وأصبح علامة في الفقه والحديث . من كتبه : تهذيب الأسماء واللغات ، ومنهاج الطالبين ، والمنهاج في شرح صحيح مسلم ، وحلية الأبرار المعروف بالأذكار ، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين والأربعون النووية [الزركلي/ الأعلام ج ٩ ص ١٨٤-١٨٥] .

(٢) فتح الباري/ ابن حجر العسقلاني ، ج ١ ص ٢٧٠ .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

لظهوره وطعامه ، وكانت يده اليسرى لخلائه وما كان به من أذى»^(١) .

وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يربي أصحابه على هذه العادات الحسنة والآداب الرفيعة :

عن عمر بن أبي سلمة قال : « كنت غلاماً في حجر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكانت يدي تطيش في الصحيفة ، فقال لي : يا غلام : سم الله ، وكل بيمينك ، وكل مما يليك . فما زالت تلك طعمتي بعده»^(٢) .

وعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا لبستم وإذا توضأتم فابدؤوا بيمينكم »^(٣) .

٦- التربية بالقدوة الحسنة :

يميل الإنسان إلى تقليد الكبار والعظماء والافتداء بهم . والتربية بالقدوة ذات أثر يفوق أثر الكلام الجميل المنمق ، ففي الحديبية أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بالتحلل من الإحرام بعد أن تم الصلح بينه وبين المشركين على أن يرجع المسلمون في ذلك العام ، ثم يقضوا العمرة في العام الذي يليه . ولكنهم كانوا في غاية الشوق إلى البيت الحرام والطواف بالكعبة المشرفة ، فشق عليهم أن يرجعوا دون أن يعتمروا وقد أصبحوا على مشارف مكة المكرمة ، فامتنعوا عن التحلل من الإحرام رجاء أن يغير النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأيه . وشق ذلك عليه ،

(١) رواه أبو داود ، وهو صحيح الإسناد .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه والبيهقي . وهو حديث حسن .

ودخل على زوجه أم سلمة^(١) وذكر لها ما لقي منهم . فقالت : يا نبي الله ! اخرج ولا تكلم أحداً منهم حتى تنحر بدنك وتحلق شعرك ، فخرج ونحر بدنه ودعا حالقه فحلقه . وما إن رآوه يفعل ذلك حتى أيقنوا أن الأمر لا رجعة فيه فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضاً^(٢) .

ولذا يجب على الآباء والمربين أن يكونوا قدوة حسنة لأبنائهم وتلاميذهم ، فهؤلاء يميلون إلى محاكاتهم ، وينطبعون بطباعهم ويتأثرون بأخلاقهم وصفاتهم أكثر من تأثرهم بما يسمعون من النصائح والدروس . قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده : « ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك ، فإن عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما صنعت ، والقبح عندهم ما تركت . علمهم كتاب الله : ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه . ورؤهم من الحديث أشرفه ومن الشعر أعفه ، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه ، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم . وعلمهم سير الحكماء ، وجنبهم محادثة النساء ، ولا تتكل على عذر مني لك ، فقد اتكلت على كفاية منك »^(٣) .

وقال الشيخ الصالح أبو اسحاق الجبنياتي المتوفى سنة ٣٦٩ هـ :

(١) أم سلمة (١٠-٦١ هـ) : أم المؤمنين ، هند بنت أبي أمية بن المغيرة القرشية المخزومية أسلمت في مستهل الدعوة هي وزوجها أبو سلمة بن عبد الأسد بن المغيرة ، وهاجرا إلى الحبشة ، ثم قدما مكة وهاجرا إلى المدينة . تزوجها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاة زوجها سنة أربع للهجرة . وهي آخر أمهات المؤمنين موتاً ، دفنت بالبقيع [ابن حجر/ الإصابة ج ٤ ص ٤٣٩-٤٤١ ، ابن عبد البر/ الاستيعاب ٤/ ٤٠٥-٤٠٨] .

(٢) البداية والنهاية/ ابن كثير - ط أولى - ١٩٦٦ ، ج ٤ ص ١٧٦ .

(٣) العقد الفريد/ ابن عبد ربه الأندلسي - لجنة التأليف والطبع والنشر : القاهرة ، ١٣٥٩ ، ج ٢ ص ٤٣٦ .

« لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين ، لأن دين الصبي على دين معلمه »^(١) .

٧- التربية باللعب :

يميل المرء إلى اللعب واللهو طيلة حياته ، ويقضي معظم وقته أثناء اليقظة في اللعب حين يكون صغيراً غير مميز ، ثم يقل انصرافه إليه مع تقدمه في السن . فإذا ما جعلنا اللعب بطريقة منظمة ذات أثر في تقوية الجسم وتنشيط العقل وتكوين الخلق أمكننا تحقيق أهداف التربية مع الشعور بالمتعة . وذلك كما في الألعاب والتمارين الرياضية التي تؤدي إلى صحة الجسم ومرونة أعضائه وقوة عضلاته ، وكما يحدث حين توضع عدة قطع أمام الطفل ، وتكون قابلة للتركيب على وجوه عديدة ، فيصنع منها دراجة أو سيارة أو طائرة أو غير ذلك . ثم يفك أجزائها ليركبها بشكل آخر ، فينشط ذهنه وينمو عقله ، وتصبح لديه قدرة على الإبداع والاختراع .

ويمكن أن يؤدي اللعب المشترك بين عدد من الأفراد إلى تعليم النظام والتعاون ومحبة بعضهم بعضاً . ويجعل اللعب الأطفال يوجهون اهتمامهم كله نحو موضوع اللعبة ، ولا يملون منه ولا يفكرون بغيره ، وبذلك يؤدي إلى زيادة الانتباه ودقة الفهم وسرعة التعلم .

غير أن الإفراط في اللعب قد يؤدي إلى ضياع الوقت ، ويصرف عن الجد والعمل المثمر ، لذا يجب أن يسمح باللعب في أوقات محددة عقب الساعات المخصصة للدراسة والعمل ، وأن تتناسب الألعاب مع عمر

(١) آداب المعلمين/ ابن سحنون ؛ تحقيق حسن حسني عبد الوهاب - دار الكتب الشرقية : تونس - ط٢ - ١٣٩٢ ، ص ٤٧ .

الطفل وقدراته حتى تكون ذات أثر تربوي .

ويشير إلى اللعب قوله تعالى :

﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٢] .

وأذن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للأحباش أن يلعبوا بالحراب في المسجد في يوم عيد لما في ذلك من الفائدة في تعلم الرمي بها واتقاء ضرباتها ، ولما فيه من المتعة والبهجة ، حتى إنه جعل عائشة - رضي الله عنها - تنظر إليهم ، فعنها قالت : « رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد ، حتى أكون أنا التي أسأم ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو »^(١)

وقد أدرك مربونا الكبار حاجة الأولاد إلى اللعب منذ العصر الأول في تاريخ هذه الأمة ، فقد حكى معتب بن أبي الأزهر - وهو من علماء القيروان في القرن الثاني الهجري - قال : « قال لي أبو القاسم عبد الله بن محمد في معرض حديث : ما حال صبيانكم في الكتاب ؟

قلت : له ولع كثير باللعب .

فقال : إن لم يكونوا كذلك فعلق عليهم التمايم » يعني أنه لا يمنع الطفل من اللعب إلا أن يكون مريضاً^(٢).

وقال الغزالي مبيناً الطريق في رياضة الصبيان وتأديبهم :

« وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب الكتب بحيث لا يتعب في اللعب . فإن منع الصبي

(١) رواه البخاري : النكاح .

(٢) آداب المعلمين / ابن سحنون ، ص ٥٣-٥٤ والكتاب : مكان التعليم .

من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يمت قلبه ويطل ذكاه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً»^(١) .

وبعد ذلك بقرون عديدة أراد رابليه^(٢) أن يتعلم تلميذه عن شوق ورغبة وأن يثقف وهو يلعب ، وأن يدرس الرياضيات نفسها عن طريق اللهو والتسلية ، واعتنى بالفنون المسلية^(٣) .

ثم جاء المربي الألماني فروبل فجعل اللعب أساساً لعملية التربية في السنوات الأولى من الحياة ، واعتبره خير وسيلة يستطيع بها المربي أن يدمج الطفل في علم العلاقات الاجتماعية كحقيقة ، وأن يلقيه معنى الاستقلال والمساعدة المتبادلة ، وأن يمدّه بفرصة الابتكار وبدافع الحركة ، وأن ينميّه باعتباره فرداً يكون جزءاً مستقلاً من أجزاء الكل الاجتماعي . وجعل للعب قيمة خلقية وفكرية بالإضافة إلى قيمته الجسمية^(٤) .

٨- التربية بالترغيب والترهيب :

يعتبر الترغيب والترهيب حافزاً يدفع إلى التعلم الصحيح والفعل الحسن وتجنب الأخطاء ، وترك القبائح . ولا ينكر وجود عاطفتي الحب

(١) إحياء علوم الدين/ الغزالي ، ج ٣ ص ٧٣ .

(٢) رابليه (١٤٨٣-١٥٥٣) : كان راهباً ثم طرد من الدير ، وهو خير معبر عن آراء الإنسانيين الواقعيين ، انتقد منهج التربية القائمة على دراسة الألفاظ والكتب ، ونادى بالتربية المحتوية على العناصر الاجتماعية والفكرية والخلقية والدينية والجسمية التي تؤدي إلى الحرية في الفكر والعمل بدلاً من الاعتماد على السلطة . ورأى أن تكون مواد الدراسة سارة ، وأن تكون وسائلها جذابة لا إجبارية [عبد الدايم/ تاريخ التربية ص ٢٣٠-٢٣٩ ، منرو/ المرجع ج ٢ ص ١١٢-١١٥] .

(٣) تاريخ التربية/ د . عبد الله الدائم ، ص ٢٣٧ .

(٤) المرجع في تاريخ التربية/ بول منرو ، ج ٢ ص ٣٥٦-٣٥٧ .

والكره أو الميل إلى الشيء والنفور منه في نفس كل إنسان ، فإذا حققت التربية رغبات النفس البشرية ، وأصبح ما يتعلمه المرء وسيلة للحصول على ما يرغب فيه أو النجاة مما يخاف منه ، فإنه يتأثر إلى أبعد الحدود .

وتتنوع رغبات الناس في الأشياء المادية والمعنوية ، وكلها ترجع إلى ما يحفظ عليهم صحتهم ويشبع غرائزهم ويلبي دوافعهم ويجعلهم في مكانة مرموقة ويشعرهم بالسعادة والأهمية . كما إنهم يخافون من الموت ومن فقدان ما يحتاجون إليه ومن أي ضرر يصيبهم أو يصيب أحبابهم .

وقد أبعد القرآن عن الناس الخوف من الموت حين أعلمهم أنه باب يدخلون منه إلى الدار الآخرة ، وأنه يأتي في أجل محدد ، ولا يستطيع أحد أن يمد في عمر الإنسان أو ينقص منه ساعة واحدة ، وأبعد عنهم المخاوف المجهولة حين أعلمهم أن النفع والضرر بيد الله وحده ، ولا يستطيع أحد أن ينفعك أو يضرك فيما لم يأذن به الله :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .

وأبعد عنهم الخوف من الفقر حين بين أن الله تكفل بأرزاق العباد ، وأن كل مخلوق يحصل على ما قسم له :

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [هود : ٦] .

ولكنه حذرهم من غضب الله ونقمته إن هم عصوه وكفروا به :

﴿ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْفَى اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ

حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي ثَغْلِيهِمْ فَأَهِمُّ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمُ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾ [النحل : ٤٥-٤٧] .

كما حذرهم من عذابه في الدار الآخرة :

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام : ١٥] .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴾ [فاطر : ٣٦] .

وبالمقابل رغبتهم بالجنات التي ينعمون فيها إن هم آمنوا به وأطاعوه :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا شَاوِعَاتٌ مِّثْلُ بَاقِرَاتٍ وَاجِدَاتٍ وَهُمْ فِيهَا سَاكِينَ ﴾ [البقرة : ٥٧] .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدًّا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴾ [النبا : ٣١-٣٦] .

وهذا النعيم لا يقتصر على ما هو حسي مادي كما يزعم المغرضون ، بل يشمل ما هو روحي معنوي ، مما يستمتع به أصحاب النفوس الكبيرة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾

[مريم : ٩٦] .

وهم يشعرون بالسعادة حين يعلمون برضوان الله عليهم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة : ٧-٨] .

ويتهجون بالنظر إلى وجهه الكريم :

﴿ وَجُوهٌ يُّومِضُ نَاصِرَةٌ ﴿٦٧﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢-٢٣] .

هذا في الآخرة ، وفي الدنيا وعد الله المستغفرين التائبين بسعة الرزق

وكثرة المال والولد ، كما جاء في دعوة نوح - عليه السلام - لقومه :

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَفَاةً ﴿١١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴾ [نوح : ١٠-١٢] .

وجاء في دعوة هود - عليه السلام - قوله :

﴿ وَيَنْفَقُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٥٢﴾ وَرَبِّدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا بَحْرَ مِثْءٍ ﴾ [هود : ٥٢] .

ووعده الله المتقين المتوكلين عليه بالفرج والعون والرزق الوفير :

﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

وقد أباح القرآن للرجل أن يمنع امرأته من النشوز وأن يحملها على طاعته والقيام بواجباتها وأن يضربها حين لا ينفع فيها الوعظ والتذكير ولا الهجر والامتناع عن معاشرتها : ﴿ وَالَّذِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُمْ فَعِظُوهُمْ فَعِظُوهُمْ وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُمْ فَإِنْ اطَّعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴾ [النساء : ٣٤] .

وأباح النبي صلى الله عليه وآله وسلم للوالد أن يؤدب أولاده إن قصرُوا في عبادة الله : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين . وفرقوا بينهم في المضاجع » ^(١) . ولكن الضرب المشروع هو الضرب الخفيف غير المبرح ، ولا يجوز إيقاعه على الوجه والرأس : « ولا تضرب الوجه ولا تقبح ، ولا تهجر إلا في البيت » ^(٢) .

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي .

(٢) رواه أصحاب السنن وأحمد من حديث معاوية بن حيدة القشيري .

وهو وسيلة غير مرغوب فيها ؛ فبعد الإذن فيه جاء إلى آل النبي صلى الله عليه وآله وسلم نساء يشتكين أزواجهن فقال : « لقد أظاف بآل محمد نساء كثير يشتكين من أزواجهن ، ليس أولئك بخياركم »^(١) .

غير أن الذين يهملون واجباتهم ويتعدون حدود الله ، ولا يتأثرون بالأساليب التربوية اللينة ، من الأفضل تحذيرهم بهذه الوسيلة القاسية لكيلا يكونوا بؤرة فساد في المجتمع أو حجر عثرة في طريق تقدمه . ولهذا شرع القصاص والحدود :

والقصاص أن يعاقب المعتدي عمداً على إنسان في نفسه أو أحد أعضائه بمثل عدوانه ، فإن قتله عمداً يقتل ، وأن فقأ عينه تفقأ عينه ، وإن جدد أنفه يجدد أنفه . . إلا أن يعفو ولي القتل أو من وقع عليه العدوان . قال الله تعالى :

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

[المائدة : ٤٥] .

والقصاص هو الذي يمنع القتل وسفك الدماء ، ويصون حق الحياة للناس ، ويؤدي إلى استتباب الأمن والعدل . قال الله عز وجل :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَىٰ أَلَا لَبِيبٌ لِّمَلَكِكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٩] .

أما الحدود فهي العقوبات المقدرة في القرآن والسنة ، وهي :

حد الزنى : وقد ذكر في القرآن حد الزاني غير المحصن ، أي الذي لم يتزوج :

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه عن إياس بن عبد الله بن أبي ذئب .

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهِدَ عَدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] .

أما المحصن فيعاقب بالرجم ، وقد ثبت ذلك بالسنة الصحيحة ، ومع شدة هذا العقاب فإن هذه الجريمة لا تثبت إلا بالاعتراف الصريح أو شهادة أربعة رجال عدول على أنهم رأوا الزاني وهو يرتكب الفاحشة . وكل من اتهم غيره بها ولم يثبت صدقه بشهادة أربعة رجال فإنه يقام عليه حد القذف وهو الجلد ثمانين ورد شهادته :

﴿ وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : ٤] .

وبذلك صان الإسلام الأعراض وحفظ الأنساب .

ولصيانة الأموال شرع حد السرقة :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] .

أما قطاع الطرق الذين يعتدون على المسافرين فيعاقبون بالحبس أو النفي إلى مكان لا يتمكنون فيه من فعل جريمتهم إن اقتصرُوا على التخويف وإلقاء الرعب ، ويعاقبون بقطع أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى إن أخذوا أموالهم ، وبالقتل إن قتلوا ، وبالصلب والقتل إن قتلوا وأخذوا المال .

وهذا هو حد المحاربة : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣] .

وهناك حد السكر وشرب الخمر شرع لصيانة العقل ، وعقابه الجلد

أربعين أو ثمانين ، وحد الردة ، وعقابه القتل ، وقد شرع لحفظ الدين .
وقد ثبت هذان الحدان بالسنة . وبالإضافة إلى ذلك هنالك التعزيرات ،
وهي العقوبات التي ترك تقديرها للحكام ولم ينص عليها في القرآن
والسنة .

وبهذا طهر الإسلام المجتمع ، وقضى على دابر الفساد في الأرض ،
وجعل الناس ينعمون بالأمن والحرية ، ويشعرون بالعزة والكرامة ، ولا
يغرنك قول من زعم أن هذه العقوبات قاسية لا تتناسب مع المستوى
الحضاري الذي بلغته البشرية في هذا العصر ؛ لأن هذه العقوبات شرعت
لمنع الناس من ارتكاب هذه الجرائم ، وليس من المناسب أن تكون
العقوبات خفيفة يستهين بها المفسدون في الأرض . ويكفي التلويح بهذه
العقوبات لمنع معظم الناس من التعدي على حدود الله . وقد فشلت
العقوبات الأخرى التي شرعها البشر في منع الزنى والقتل والسرقه . .
وليس المجتمع المتحضر بالذي يسمح بالإجرام ، ويتساهل مع
المجرمين ، وإنما هو الذي يربي أفرادها على الخير والفضيلة ويمنع الشر
والرذيلة ، ويسود فيه الأمن والعدل .

ولهذا يكون من المجدي استعمال المثوبات والعقوبات في التربية
بالوسائل المادية والمعنوية ؛ فتشجيع المتعلم والثناء عليه وترغيبه
ومكافأته إن أحسن ؛ يؤدي إلى تعزيز إجابته واستمرار تقدمه وزيادة
فعالياته .

وتأنيب المسيء وعقابه وحرمانه من بعض الأشياء يجعله يعلم أن الأمر
جد لا هزل فيه ، فيصبح أكثر يقظة وانتباهاً وأشد حذراً واهتماماً ،
فيجتنب الخطأ ويتعد عن القبيح .

والمربي الحكيم هو الذي يضع كل شيء في موضعه ، ويعامل كل

واحد بما يناسبه ، فلا يؤنب من تكفيه الإشارة ، ولا يضرب من ترجمه العبارة . والترغيب والثواب مقدم على الترهيب والعقاب .

حكى الأحمر النحوي^(١) عن نفسه قال : « بعث إليّ الرشيد^(٢) لتأديب ولده محمد الأمين^(٣) فلما دخلت عليه التفت إلي وقال : يا أحمر : إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه ، وثمرة قلبه ، فصير يدك عليه مبسوطة وطاعتك عليه واجبة ، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين ، أقرئه القرآن وعرفه الآثار وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه عن الضحك إلا في أوقاته . ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تخرق به فتميت ذهنه ، ولا تمنع في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه . وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة »^(٤) .

والطفل الرقيق المرهف الحس لا يحتاج إلى الضرب والعنف ؛ كان سحنون^(٥) يقول لمعلم ابنه : « لا تؤدبه إلا بالمدح ولطيف الكلام ، ليس

(١) الأحمر النحوي (... - ١٩٤ هـ ، ... - ٨١٠ م) : علي بن الحسن ، مؤدب المأمون وشيخ النخاعة في عصره . أوصله الكسائي إلى هارون الرشيد ، فعهد إليه بتأديب أبنائه . وناظر سيبويه [خير الدين الزركلي/ الأعلام ، ج ٥ ص ٧٩] .

(٢) هارون الرشيد (١٤٥ - ١٩٣ هـ) : هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . ولد بالري ، وبويع بالخلافة بعد موت أخيه موسى الهادي سنة ١٧٠ هـ . ومات في طوس . كان يصلي كل يوم مئة ركعة إلا من مرض ، ويتصدق كل يوم من ماله بألف درهم [ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٨٢ - ١٣١] .

(٣) الأمين (١٧٠ - ١٩٨ هـ) : محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة سنة ١٩٣ هـ . كان يميل إلى اللهو والعبث ؛ فقتل بعد ذلك بخمس سنين [ابن الأثير/ الكامل ، ج ٥ ص ١٣٤ - ١٧١] .

(٤) مروج الذهب للمسعودي - دار المعرفة : بيروت ، ١٤٠٢ هـ - ج ٣ ، ص ٣٦٢ .

(٥) سحنون (١٦٠ - ٢٤٠ هـ ، ٧٧٧ - ٨٥٤ م) : أبو سعيد ، عبد السلام بن سعيد بن حبيب =

هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف»^(١) .

وذهب محمد بن سحنون^(٢) إلى أن المعلم لا يجاوز بضرب الأولاد ثلاثة أو عشرة أسواط فقال : « ولا بأس أن يضربهم على منافعهم ، ولا يجاوز بالأدب ثلاثاً إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحداً . ويؤدبهم على اللعب والبطالة ، ولا يجاوز بالأدب عشرة . وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثاً »^(٣) .

وقال في تعليل هذا المقدار : سمعت مالكا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يضرب أحدكم أكثر من عشرة أسواط إلا في حد »^(٤) .

وقد حذر العلامة ابن خلدون^(٥) من الإفراط في الشدة والعنف ، وبين

= التنوخي . أصله شامي من حمص ، ومولده في القيروان ، ولي قضاءها حتى وفاته وهو فقيه رفيع القدر ، عفيف أبي النفس ، انتهت إليه رئاسة العلم في المغرب [الزركلي / الأعلام ج ٤ ص ١٢٩] .

(١) آداب المعلمين / ابن سحنون ، ص ١٥-١٦ .

(٢) ابن سحنون (٢٠٢-٢٥٦هـ ، ٨١٧-٨٧٠م) : أبو عبد الله ، محمد بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي ، ولد في القيروان ، واعتنى أبوه بتربيته وتأديبه ، وبعد أن أخذ حظه من القرآن والعلوم الضرورية تحول إلى مجالس الدروس العالية ثم حج والتقى بعلماء الفسطاط والمدينة المنورة ، وشاع ذكره . وعاد إلى بلده ، وانكب على التأليف والتدريس ، وقصده الطلاب من كل حذب وصوب . كان إماماً في الفقه ، وعالماً بالآثار . له مؤلفات كثيرة في الفقه والعقيدة والحديث والتاريخ والأعلام [ابن سحنون / آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، ص ١٥-٣٠] .

(٣) آداب المعلمين / ابن سحنون ، ص ٨٩-٩٠ .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأحمد والبيهقي من حديث أبي بردة .

(٥) ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ ، ١٣٣٢-١٤٠٦م) : أبو زيد ، عبد الرحمن بن محمد

ابن أبي بكر ، ابن خلدون الحضرمي . ولد في تونس ، وحصل فيها علومه ، وتنقل =

عاقبة ذلك في قوله : « إن إرهاب الجسد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ، ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه ، وعلمه المكر والخديعة لذلك ، وصارت له هذه عادة وخلقاً ، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهي الحماية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عيالاً على غيره في ذلك ، بل وكسلت نفسه عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فانتكس وعاد في أسفل سافلين »^(١) .

وقد اختلف موقف المربين من العقوبات على مر العصور :

فكانت النظم في الهند قديماً تبيح العقاب الجسدي ، وكان المعلمون يستخدمون العصا وبعض الوسائل الأخرى ، كأن يصبوا الماء البارد على المتعلم^(٢) .

وكان نظام التربية لدى بني إسرائيل ليناً بعض الشيء ، ومما يقوله

= في بلدان كثيرة ، وحصل على حظ وافر من العلوم الدينية والعقلية والفلسفية . وتردد بين شمال إفريقية والأندلس ، وعمل كاتباً ووزيراً لعدد من الملوك والحكام . ثم انتقل إلى القاهرة ، ودرّس في الأزهر ، وتولى قضاء المالكية فيها . وذهب إلى دمشق لصد تيمورلنك قائد التتر ، وعاد إلى مصر وبقي فيها حتى وافته المنية . وهو مؤسس علم الاجتماع ورائد من رواد العلوم السياسية . وقد حاول في مقدمته تفسير التاريخ على أساس دراسة الأوضاع الاقتصادية والجغرافية للجماعات البشرية ، ووضع مبادئ ، واستخلص نتائج ونظريات لم يسبق إليها [مقدمة ابن خلدون ؛ تحقيق علي عبد الواحد وافي ج ١ ص ٢٨ ، ٨٣ ، بول غليونجي ٨٤-٨٥] .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٣٢-٦٣٣ .

(٢) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ١٤ .

التلمود : « عاقب الأطفال بإحدى يديك ، وداعبهم بكلتيهما » . ومع ذلك فقد كانوا يبيحون العقاب الجسدي للأطفال الذين يجاوزون الحادية عشرة ، وكان من الجائز أن يحرم من جاوز هذه السن من الخبز ، وأن يضرب بشسع النعل^(١) .

أما نظام التربية المسيحية الذي ساد أوربا في العصر الوسيط فكان قاسياً ، إذ كانوا يسيئون الظن بالنفس الإنسانية ، ويحاولون أن يرهقوها ويعذبوها ليطهروها . ولقد حرم على الطلاب عام ١٣٦٣م ؛ الجلوس على المقاعد والكراسي بحجة أنها تفسح المجال للكبرياء والغرور . وكان العقاب سائداً وجليظاً ، وكان العقاب الجسدي خاصة كثير الاستعمال متنوع الأشكال ، حتى إن استخدام الدرة ظل منتشراً حتى القرن الخامس عشر . حيث اتخذت التربية اتجاهات مختلفة على يد « جيرسون »^(٢) الذي طلب أن يجنح المعلمون إلى الصبر والشفقة لأن الأطفال الصغار أسهل انقياداً بالمداعبة واللين منهم بالإرهاب والخوف ، وحارب العقوبات الجسدية ، وطلب من الأساتذة أن يحملوا لطلابهم عطف الأب ورحمته^(٣) .

ومن بعده قام المربي الهولندي « إيراسموس »^(٤) ودعا إلى استبعاد

(١) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ١٧ .

(٢) جيرسون (١٣٦٣-١٤٢٦) : كان حامل أختام جامعة باريس ، وعرف بين أبناء عصره بحبه للشعب كتب بلغة عامية رسائل صغيرة مبسطة ، جعلها في متناول العامة ، وبنم كتابه الذي كتبه باللاتينية بعنوان : « الأطفال الذين ينبغي أن نهيدهم إلى المسيح » عن روح كبيرة فيها الكثير من الوداعة وحب الخير ، وفيه كثير من الملاحظات الدقيقة حول التعليم . وهو يطلب أن يجنح المعلمون إلى الصبر والشفقة ويحارب العقوبات الجسدية [عبد الدائم/ تاريخ التربية ص ٨٨] .

(٣) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٨٧-٨٨ .

(٤) إيراسموس (١٤٦٧-١٥٣٦) : أديب وفيلسوف ومرب هولندي ، وهو أشهر ممثلي =

النظام القاسي والطرق الوحشية في التعليم ، وأن يستبدل بها طرق التشويق والإغراء^(١) .

ومثله « مونتيني »^(٢) صاحب النزعة الإنسانية الذي احتقر العقوبات الجسدية والنظام القاسي الذي كان سائداً في المدارس الداخلية في زمنه وقال : « إننا بدلاً من أن نحجب الآداب للأطفال ، لا نزودهم في الواقع إلا بالذعر والقسوة ، فانزعوا القسوة والقوة ، إذ لا شيء في نظري أقتل للطفل وأخطر على الطبيعة السلمية منهما . . ولقد ساءني دوماً مثل هذه التدابير التي تلجأ إليها معظم كليتنا . . إنها لسجن حقيقي لشبيبة أسيرة ، إنك إذا دخلت عليهم لا تسمع إلا صراخ أطفال يعذبهم معلمون قد ملكتهم نشوة الغضب . فيا لها من خطة لإيقاظ الشهوة إلى الدروس

= الحركة الإنسانية الواقعية ، قضى سنوات قليلة في إحدى مدارس الرهبنة ، ثم انتقل إلى مدرسة الكنيسة المشهورة في دافتر بهولندا ، وحقق آداب القدماء ولغاتهم بالدراسة في باريس واكسفورد وإيطاليا . دُرِسَ في إنجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة وسويسرا وإيطاليا ، ونشر كتباً عديدة في الأدب وقواعد اللغة اللاتينية والإغريقية ، وشرح الكتاب المقدس والأخلاق والتربية والأمثال [عبد الدايم/ تاريخ التربية ص ٢٢٧-٢٣١ بول منرو/ المرجع ج ٢ ص ٣٥-٤٠ ، ١١١-١١٢] .

(١) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ص ٢٢٨ .

(٢) مونتيني (١٥٣٣-١٥٩٢) : يمثل ميشيل مونتيني النزعة الواقعية الاجتماعية في التربية وقد عاش في فرنسا في العصر الذي بلغت فيه الحركة الأدبية قممتها ، وبلغت فيه فكرة إحياء العلوم الأدبية القديمة الذروة العليا . رباه والداه بلطف وحرية دون قسوة أو إكراه . وهو يرى أن التربية هي فن تكوين إنسان بالمعنى الكامل ، وأن غاية الثقافة أن يصبح التلميذ خيراً مما هو وأنفذ بصيرة وأسلم حكماً وتفكيراً . وهو يخضع كل شيء للأخلاق والفضيلة ، ولا يعتمد الكتب بقدر ما يعتمد التجربة وملاحظة الأشياء والأشخاص . وهو يعتقد أن أحسن وسيلة للتربية هي الاحتكاك المباشر بالحياة . ولكنه احتقر المرأة ورأى أن تبقى في الجهالة [منرو/ المرجع في تاريخ التربية ج ٢ ص ١٢٤-١٣٢ ، عبد الدايم ٢٤٠-٢٤٧] .

ولتوجيه تلك النفوس الغضة السريعة الخوف إلى تلك الدروس بيدين مسلحتين بالدرر ويا له من مظهر سيء للعدالة قتال . . أو ليس من الأليق أن نغرس صفوفهم بالأزهار والأوراق بدلاً من أن نغرسها بقضب القصب الدامية»^(١) .

ثم جاء « جون لوك » فمنع العقاب الجسدي وحكم على الدرة بقوله :
إن الدرة أداة خنوع تجعل الطبع ذليلاً^(٢) .

غير أن « مالبرانش »^(٣) رأى أن تحذف كل المكافآت الحسية ، وأبقى على العقاب المادي ، وأجاز الضرب بالدرة^(٤) .

* * *

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يشير إلى أهم الوسائل التربوية الحديثة ، ويترك اختيار الأسلوب المناسب لحكمة المربي وخبرته وحال الذين يتعامل معهم والبيئة التي يعيشون فيها ولتغير الظروف على مر الزمن .

* * *

(١) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ٢٤٢ .

(٢) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ٣١٠ .

(٣) مالبرانش (١٦٧٨-١٧١٥) : مثالي متصوف ، يرى أن أول عمل واجب هو أن نغذي الطفل بالحقائق المجردة ، ويجب العزوف عن الثقافة الحسية ، ونهى عن الاعتماد على الذات والآلام والمكافآت الحسية في التربية ، واستبقى مع ذلك العقاب بالدرة [عبد الدائم/ تاريخ التربية ص ٣٠١-٣٠٣] .

(٤) تاريخ التربية/ د . عبد الله عبد الدائم ، ص ٣٠٢ .